على الهامش

زكريا إبراهيم... حكايات الجنون العادي

في شارع الحمرا، يهيم على وجهه هارباً من تركة القدر. نكبات متلاحقة مُني بها أحد أبرز الوجوه الأدبية في سوريا الثمانينيات، فانتهى به المطاف صعلوكاً «مطلوباً» يحمل مقالاته القديمة في حقيبة لا تفارقه أبداً

أنس زرزر

يغصّ شارع الحمرا البيروتي بالحكايات والمفارقات على مدار الساعة. أجواء الضجيج والصخب، والرغبة الجامحة بالحياة يجدها العابر في الشارع الطويل، مرتسمةً على وجوه روّاده. في أحد المحال التجارية المعروفة وسط الشارع، تستوقفك صورة علّقت على الجدار، تظهر لقطات لبعض الزبائن المغلوب على أمرهم، اصطادتهم كاميرا المراقبة وهم يسرقون بعض البضائع مع كلمة wanted. نسأل صاحب المتجر عن حقيقة المشهد والدعابة الساخرة الكامنة وراءه، فيجيبنا: «ضقنا ذرعاً بسرقة بضاعتنا، بعدما تحوّلت إلى حدث شبه يومي. علقنا بعض صور السارقين كنوع من التحذير المسبق إلى كل من تسول له نفسه السرقة مجدداً، وحتى يعرف أصحاب هذه الصور، أنّنا لسنا غافلين عن رزقنا». يذكرنا المشهد المتصدر مدخل المتجر، بأفلام الغرب الأميركي، عندما كانت تعلّق صور القتلة والمجرمين والمطلوبين للعدالة، على الأعمدة ومداخل الحانات مع كلمة Wanted ويتسابق صائدو الجوائز في مشاهد الفيلم للقبض عليهم! كان للحوار الساخر مع صاحب المتجر أن ينتهي سريعاً، لكنّ التدقيق في صور «الجناة»، أظهر الشاعر والكاتب الصحافي السوري زكريا إبراهيم، وهو يحاول إخفاء قطعة من البسكويت داخل معطفه الشتوي القديم.

لم يلاحظ صاحب المتجر المشغول بمحاسبة زبائنه، تحوّل الضحكة إلى شرود وتأمل: لماذا يا زكريا إبراهيم؟ ذلك الكاتب السوري الذي لمع نجمه في الثمانينيات، اختار احتراف الصعلكة، والغرق في حياة الخمر، بعدما هجر الكتابة وحياة الشعر والصحافة والأدب، وتحول إلى شخص منسي يعيش على هامش الحياة التي جارت عليه وسحقت أحلامه. يتنبه صاحب المتجر لشرودك وأنت تحدق في الصورة الصغيرة. يدفعه الفضول ليسألك بحماسة: «شو أستاذ كأنك بتعرف حدا من هالحرمية؟» تجيبه بالنفي. تحاول رسم ضحكة على وجهك وتمضي بعيداً باحثاً عن زكريا إبراهيم، الصعلوك الذي يقضي أيامه الآن متسكعاً في شوارع بيروت، باحثاً عن ثمن زجاجة خمر، وسرير ينام عليه بقية ليلته. قبل أن يتحول زكريا إبراهيم إلى «مطلوب» بسبب سرقة قطعة بسكويت صفراء اللون، كما تظهر في صورته، كان يعتبر واحداً من أبرز الوجوه الأدبية الشابة الواعدة في مطلع الثمانينيات. اندفاعه نحو التجربة لفت أنظار عرّاب المسرح السوري الراحل فواز الساجر، فعمل معه ممثلاً في عدد من عروضه الأولى. ربما هذا ما أكسبه ثقة بالنفس، ما زال يعيش في ردائها أمام أهم المسرحيين السوريين حتى الآن. مرةً، التقى زكريا إبراهيم النجم غسان مسعود، فخاطبه قائلاً: «تعال إليّ» فاقترب مسعود منه، وفتح معه حوار طويل عن الذكريات التي جمعتهما مع الراحل فواز الساجر. مقالات نقدية نشرها زكريا ابراهيم في جريدة «السفير»، فرضت نفسها حالة متفردة على الساحة الثقافية السورية في زمن كثر فيه الهجاء المجاني، وقلّ فيه النقد الأكاديمي الحقيقي. شكلت مقالاته هاجساً ومحفزاً للكثير من الصحافيين والنقاد في تجاوز أسلوب إبراهيم في ذلك الوقت. يحمل زكريا اليوم بعضاً من مقالاته القديمة في حقيبة لا تفارقه أبداً. لقد تحولت القصاصات الورقية إلى جزء من هويته التي يرفض أن يفقدها، أو أن تسرقها منه عثرات الأيام. صدمات نفسية ونكبات متلاحقة، حلّت عليه من دون استئذان، لعل أكثرها إيلاماً وقسوة، وفاة زوجته الثانية في حادث دراماتيكي، ربما لن تجد له مثيلاً في أعظم تراجيديات العالم. لم يقف إلى جانبه أحد من الأصدقاء. وجد في الإدمان على الكحول مهرباً من الضيق الذي سيطر على قلبه وعقله. اليوم تجده مخموراً يهيم على وجهه في الحمرا. القدر لم يكن كريماً معه كعادته. حولته لحظة ضعف من متسكع يعيش على أنقاض أحلامه المحطمة إلى «مطلوب» بتهمة سرقة قطعة بسكويت صفراء اللون، يسخر من صورته و«جريمته» الصغيرة، الزبائن العابرون في شارع الحمرا!

> **لفت أنظار الراحل فواز الساجر، فعمل معه ممثلاً في عدد من عروضه الأولى**

على موقعنا نص كتبه زكريا إبراهيم في وداع النجم السوري ياسين بقوش

«إعدام» ــ يو مين جن (ألوان زيتية ــ الصين ــ 1995)

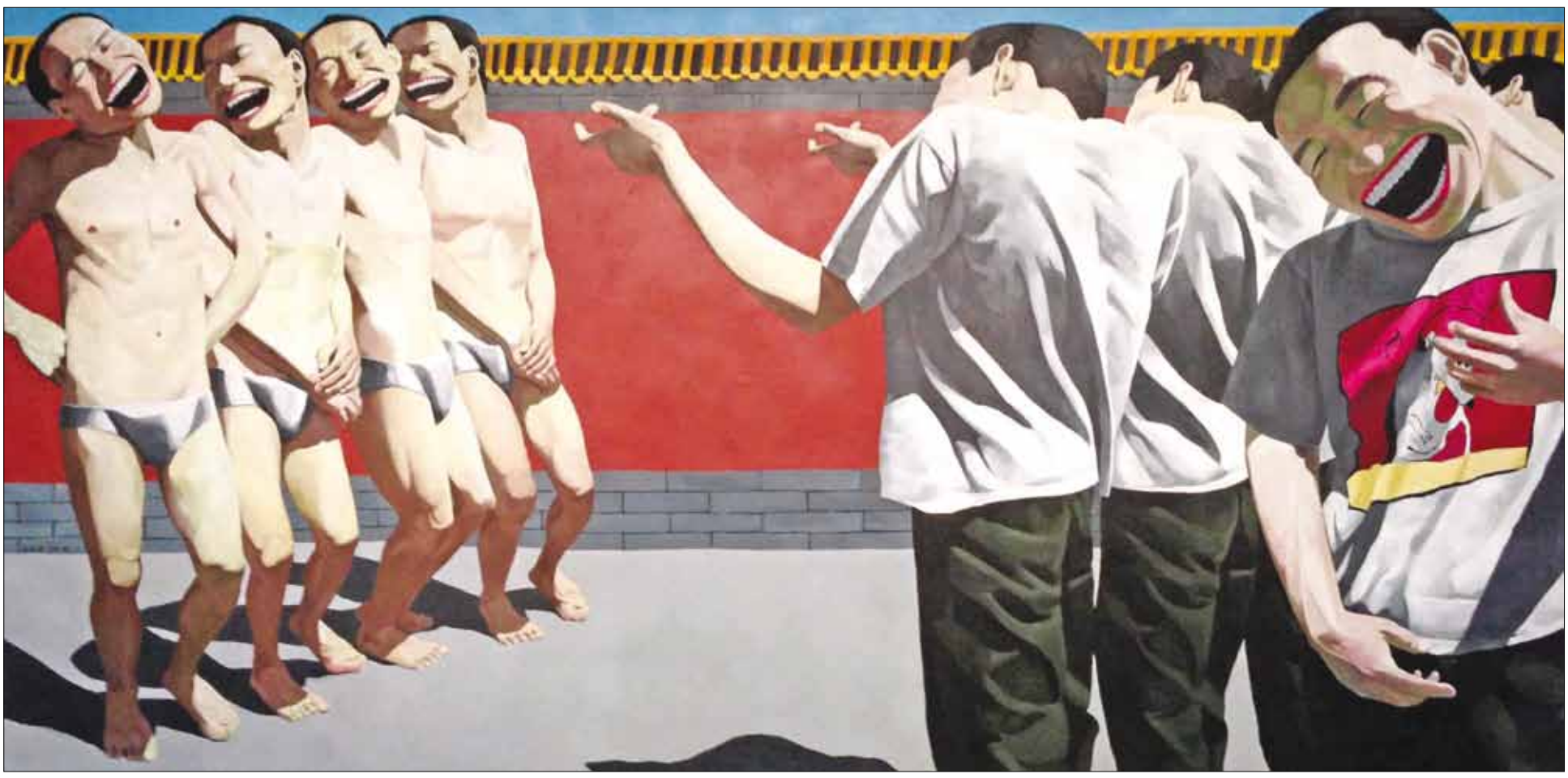

وقت للكتابة

أجل، أسكن في كفرسوسة يا صديقي

زيد قطريب *

الانعطاف من المتحلق الجنوبي باتجاه كفرسوسة بمثابة انقلاب. ذلك الأوتوستراد الفسيح المضيء الذي يلف دمشق من غربها إلى شمالها، يبدو مختلفاً عند العقدة التاسعة، حيث تبدأ «الهوندا» بتلقف الطريق ببطء يقطعه رجال الأمن وهم يحدقون كأنهم رجل واحد باتجاه السيارة التي غامرت في الخروج و«التكويع» نحو كفرسوسة في هذا الوقت المتأخر من ليل الجمعة. يتكئ الصغير على البلور ويبدأ لهاثه بتغشية الأضواء الخافتة من الخارج ليزيدها قلقاً. إنها الثانية ليلاً، ورجل الأمن لا يصدق المعلومات على البطاقة الشخصية. ماذا تفعل هنا؟ أذهب إلى بيتي، لقد أخذت الصغير إلى المستشفى! يفغر الرجلُ فمه وهو لا يصدق أنني أسكن على أطراف هذه البساتين. أنا المتحدر من الريف الحموي الموغل في التصوف والباطنية، أقطن مع كثيرين من أبناء الساحل والسويداء في عمق ما يسمى المستنقع الصعب أو بساتين كفرسوسة المصنفة سلفاً ضمن خانة التطرف والتدين ومناهضة النظام! يخفض الرجل ضوء ولاعته الصينية ويشير بيده كي تتابع السيارة سيرها. كأن هذا الرجل يملك صورة خرافية عنّ المنطقة وقد حطمتها للتوّ بطاقتي الشخصية مع مكان سكني. للأسف، كان صعباً أن يكتشف السوريون أنفسهم بغير هذه الطريقة. كم كان مجدياً لو ترجّل رجال الشرطة من سيارات «الستيشن» ليشربوا الشاي مع السمّان أبو ياسين، أو يجلسوا مع النّاس تحت التوتة المعمرة في كفرسوسة. تلك التفاصيل التافهة كانت تعني وطناً كاملاً، وكان علينا نحن النازحين من المحافظات البعيدة أن ننسى طوائفنا ونندمج في هذا المجتمع الريفي البسيط والمحب. إنها التفاصيل الهامشية التي دخلها الجميع دون قصد، كي يكتشفوا وجهاً مختلفاً للبلد. لعبة الاكتشاف عبر التفاصيل الهامشية، نجحت في كفرسوسة، فقد تمت بلا ايديولوجيا، وكان طبيعياً أن يفاجأ الكثير من «الكفارسة» بصوت عبد الباسط عبد الصمد في ترتيلاته القرآنية أثناء مآتم الأقليات.

عشوائيات كفرسوسة حملت نبوءة المجتمع السوري واحتمالاته اللاحقة في وقت اختلطت فيه مصطلحات الثورة والأزمة والأحداث، مع ما يمكن تصوره أيضاً من طائفية واغتيال وتخوين. رغم أن تلك المصطلحات لم تكن قد أطلت برأسها في ذلك الوقت، إلا أن نذرها كان يلوح في أفق التوجّس السوري لينكشف المشهد على انقسامات حتى ضمن أهل الحارة الواحدة حين هرع بعضهم لمحو كتابات المتظاهرين عن الجدران كنوع من الحماية للمنطقة جراء تداعيات الأحداث. في الوقت نفسه، كان الشباب يذهبون باتجاه مغامرات أكثر جنوناً كتأليف الشعارات واكتشاف الرجل البخاخ. المفارقة أن كل الأطراف كانت تملك صورة شفّهية وخرافية عن بعضها الآخر، لكن أهم تلك الصور هي شخصية رجال الشرطة والأقليات في أذهان «الكفارسة»، والصورة الثانية هي أبناء تلك المدينة القابعة على أطراف العاصمة في أذهان النازحين الجدد الذين وفدوا إليها. القاسم المشترك بين الصورتين كان الثقافة الشفهية الممزوجة بالميراث الديني والإشاعات التي تكلست بعامل الزمن وكان عليها اليوّم أن تنفجر دفعة واحدة! نعم، أنا أسكن في كفرسوسة يا صديقي، لكنني الآن، ربما، أبحث عن وطن!.

> **كل الأطراف كانت تملك صورة خرافية عن بعضها الآخر**

* شاعر سوري